نص أدبي جديد من العصر الغرناطي :

شرح بردة الإمام البوصيري

لأبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر (ت807/ 1404)

د. علي الغزيوي

(فاس. المغرب)

على الرغم من الأحوال المضطربة والظروف الصعبة الخاصة التي عرفتها الأندلس خلال ما عُرف بالعصر الغرناطي، في المجالات السياسية والعسكرية، ولا سيما ما تعلق بتقلص الرقعة الجغرافية، ونقص الرجال والأموال، وتهديد القوى النصرانية لأمن المسلمين وأرزاقهم، وكثرة المناوشات والتحرشات، فإن الحركة الثقافية قد ازدهرت في هذا العهد أيّما ازدهار؛ فنشطت العلوم والمعارف المتنوعة، تأليفا وإبداعا، مع سيرورة الحياة في دورتها الطبيعية.

وإذا كان بالإمكان القول إن هذا العصر كان مرحلة جهاد متواصل لايكاد ينقطع أو يتوقف، فإنه يمكن التأكيد في الوقت ذاته أنه كان عصر تأليف وتدوين بامتياز؛ فقد اتجه رجال هذا العصر إلى التأليف والتدوين في مختلف مجالات المعرفة، وكأنهم يسابقون الزمن، ويتحدّون العدوّ المتربص بهم صباح مساء، بل إن مؤلفات هذا العصر قد اتخذت الطابع الموسوعي من حيث الحجم، في الفقه وأصوله، وفي الأدب، شعره ونثره، وفي التاريخ والتعريف بالرجال الأعلام في مختلف ميادين الفكر والثقافة، وكذلك بالمدن الأندلسية، كما نشطت الشروح أيضا وتعددت أنواعها إلى حد كبير، سواء أتعلق الأمر بالمتون المشرقية أم بالمتون الأندلسية، بحيث يمكن وصف هذا العصر بأنه عصر الموسوعات بحق.

وربما كان التوجه إلى ما يكتسي الطابع الديني أكثر بروزا من التوجه إلى المجالات الدنيوية الخالصة، وكان ما يرتبط بالجانب الروحي أكثر جاذبية من غيره، وفي هذا السياق يأتي الاهتمام المتزايد بالشعر الديني، والمديح النبوي، والتصوف،

والأذكار، والتوسل، والمناجاة، وما إلى ذلك مما يشحن النفوس ويستثير كوامنها ويحرك مشاعرها، ويلهب عواطفها، ويؤجج أحاسيسها، وليس هناك نص يستجيب لهذه المواصفات جميعها أنسب من قصيدة البردة للإمام البوصيري [1] ؛ فهي بنفَسها المتميز، ومعانيها الروحية الحماسية، ونمطها الفني المتفرد، وأسلوبها المناسب، تأخذ بمجامع النفوس، وتملأ كيانها بما يحقق لها الطمأنينة، ويملأ فراغها الروحي، ويمدها بشحنات قوية من الإيمان والانتشاء عند إنشادها فرديا أو جماعيا، مما قد لايحققه أي نص آخر بنفس الدرجة.

ولعل هذه الخصائص والمميزات هي التي دفعت عددا كبيرا من الأعلام إلى الإقدام على شرحها أو تشطيرها...، يحدوهم في الوقت نفسه أمل في تحصيل شيء من بركتها، فقد شاع عند الناس أنها قصيدة مباركة، ما اشتغل بها أحد إلا ناله قدر من ذلك، بدءاً من ظروف نظمها إلى روايتها وإنشادها وشرحها، ممازاد من تشبث الناس وإعجابهم بها، وتعدد الأسماء التي أطلقوها عليها، مثل : البردة، البرأة، والدرة اليتيمة، والشافية، والميمية...

ومن تلكم الشروح المتميزة الغنية : الشرح الذي وضعه الأمير الغرناطي الأندلسي أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر، نزيل فاس، وهو من الرجال الأعلام الذين خدموا ثقافة الغرب الإسلامي خلال القرن 14/8 وأوائل 15/9، إذ ولد بغرناطة سنة 725 /1324. وبها درس على علمائها قبل أن يغادرها مرغما مغرَّباً مع أبيه نحو بجاية أولا، في ظروف غامضة لم تتضح للباحثين بعدُ بما فيه الكفاية، وإن كانت

(1) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن حياتي بن صنهاج بن هلال الحميري البجاني، نزيل بوصيرى من أرض مصر، المعروف بالبوصيري، حلّته مختلف المصادر التي ترجمت له بالفقيه الإمام العالم بالفقه، البصير بالعربيّة، وله نصيب وحظ وافران في معرفة الآداب والشّعر وأصول الفقه، اشتهر بالمديح النبوي وفاقت ميميته المعروفة بالبردة أي قصيدة أخرى في موضوعها وفنيتها، وهذه القصيدة، كما يقول تلميذه الجاديري «تنبئك باتّساع باعه في العلوم ومعرفته بالآداب»، توفي سنة 696 /1296.

الظلال السياسية والصراع بين أمراء بيت بني الأحمر الحاكم غيرَ غائبة عن هذا التغرب، ثم انتهى به المقام بعد ذلك بمستقره بفاس، وتوفي سنة 1404/807 بعد أن ألف مجموعة كبيرة ومفيدة من المصنفات القيمة في موضوعها، وصلنا معظمها لحسن الحظ، وطُبِعَ جلٌّ ما وصلنا منها، ولايزال قليلها مخطوطا لم يـر النور بعدُ، ولم يَعُمَّ تداوله على نطاق واسع، وفي مقدمتها هذا الشرح الذي يتميز بأنه :

- ينتمي إلى العصر الغرناطي الغني بمصنفاته المتنوعة، بل هو من تأليف أحد أبناء البيت الحاكم بغرناطة في تاريخها المتأخر.
- من أقدم الشروح المعروفة في الغرب الإسلامي، أو في الأندلس على الأقل.
- شيوع تداوله لدى القدماء وثناؤهم عليه.

وممّن ذكره على سبيل المثال أبو العباس أحمد المقّري، وهو بصدد الحديث عن قرشية جده أبي عبد الله محمد المقري فقال :

« وممّن صرح بالقرشية في حق المذكور ابن خلدون في تاريخه، وابن الأحمر في (نثير الجمان) وفي شرح البردة عند قوله :

لعلَّ رحمةَ ربي حين يَنشُرُها [(1)]»

غير أن تداول هذا الشرح والإحالة عليه في مختلف المصادر التي وقفنا عليها لم تشر إليه بعنوان محدد.

عنوان المخطوط :

نشير إلى أن النسخة التي نعتمدها من هذا المخطوط نسخة فريدة، لا ثاني لها حسب علمنا فيما هو معروف في الفهارس والخزانات، حاشا الخزانات الخاصة. وهي نسخة مبتورة من آخرها كما سنرى فيما بعد، سليمة البداية، إلا أنها لاتحمل عنوانا مستقلا، بل تبتدئ بالبسملة والتصلية، وبعدهما مباشرة : قال الرئيس أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي الحجاج يوسف ابن السلطان القائم بإذن الله أبي عبد الله محمد ابن الأمير

(1) نفح الطيب : 204/5. وهذه الإحالة تقع ضمن القسم الضائع من هذا الشرح كما سنرى فيما بعد.

أبي سعيد فرج ابن الأمير أبي الوليد إسماعيل ابن الأمير أبي الحجاج يوسف الشهير بالأحمر ابن السلطان المنتصر بالله أبي بكر ابن محمد بن نصر الخزرجي الأندلسي رحمه الله.

وفي هذه الصفحة الأولى يحدد الشارح عنوان شرحه بقوله : « وبعد، فإني لما تصفحت القصيدة العظيمة الموسمة بالبردة، في مدح خير عُدة، أخذت في شرح لغاتها ومعانيها، وسبك إشاراتها ومبانيها، وسمّيت كتابي هذا : بال... واستنزال الفرج بعد الشدّة في شرح قصيدة البردة ».

ويبدو أن ما حال دون تداول هذا العنوان هو صيغته الطويلة التي ربما أدت إلى استثقاله نسبيا، والنفور منه، مع أن صاحبه حاول التخفيف من ذلك الثقل باختياره صيغة مسجوعة، راعى فيها في الغالب ما كان سائدا في عصره من هذا النمط، و مع ذلك ظلت الصيغة المتداولة في مختلف المصادر والمراجع هي : شرح البردة لأبي الوليد ابن الأحمر، ولاسيما واللفظة الأولى من صيغة العنوان غير واضحة، حتى إن بعض الباحثين حذفها واكتفى بما بعدها فجاء العنوان عنده بصيغة : استنزال الفرج بعد الشدة في شرح البردة. وإن كان ليس من المستبعد أن يكون تجنب استعمال صيغة العنوان كما وضعها الشارح راجعا إلى عدم اطلاع بعضهم على النسخة المخطوطة من الشرح، واكتفائهم بالنقل عنه بالسماع أو بالواسطة، أو عن طريق التلخيص الذي وضعه عبد الرحمان الجاديري الفاسي (ت. 818/1415) ، تلميذ ابن الأحمر.على أن الصيغة المسجوعة في عناوين شروح البردة قد كانت مألوفة متداولة في عصر ابن الأحمر وبعده، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

- العُدة في شرح البردة لأبي العباس أحمد الأنصاري الغرناطي المعروف بالبقني.
- إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني العجيسي، المعروف بابن مرزوق الحفيد (766/1364 - 842/1438). وله عليها ثلاثة شروح : كبير ووسيط وصغير.

تاريخ التأليف ومكانته بين شروح البردة :

بالنظر إلى تعدد الشروح التي أُنجزت على بردة الإمام البوصيري، وبسبب كثرتها في المشرق والمغرب، وغياب عدد منها لأنه مفقود، أو في حكم الضائع، فإننا لا نستطيع التأريخ بدقة لزمن تأليف ابن الأحمر هذا الشرح. وعلى الرغم من صعوبة الأمر، ولاسيما وهو لم يذكر شرحا آخر حتى نعرف ما إذا كان سابقا أو مسبوقا، بخلاف ما فعله تلميذه عبد الرحمان الجاديري الفاسي المتوفّى سنة 1415/818 حين أشار في ديباجة تلخيصه لشرح أستاذه إلى بعض الشروح الأخرى، بل إننا نستطيع أن نعتمد على كلام تلميذه من أجل ترجيح سبق أستاذه ابن الأحمر إلى شرح البردة، وأنه كان رائدا في هذا المجال، على الأقل بالنسبة إلى الشروح الأندلسية، يقول الجاديري :

« وقد شرح هذا القصيدَ - لَمَّا أخذ شيخنا أبو الوليد في شرحه - أناس من أهل بلدنا، منهم : الفقيهُ القاضي الخطيب الكاتب أبو القاسم بن يحيى بن محمد الغساني البرجي، وتُوفّي ولم يستكمله، والحاجب الكاتب أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن الحسين بن خلدون الحضرمي، والفقيهُ المحدّث الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العجيسي، الشهير بابن مرزوق، وأخو شيخنا أبي الوليد الرئيس أبوعبد الله محمدُ بنُ محمد، وغيرهم». وهذا بغضّ النظر بطبيعة الحال عن بعض الإشارات إلى شروح أخرى قد تكون سابقة، ولكنها لم تكمل، وهي في معظمها غير أندلسية.

وإذا كان الجاديري قد انتهى من تأليف شرحه ليلة الخميس من منتصف جمادى الثانية عام 1394/797، فإن شرح أستاذه يكون سابقا على هذا التاريخ، وإن كان البتر الذي أصاب النسخة قد ذهب باسم الناسخ وتاريخ النسخ.

وصف شكلي عام للشرح :

يقع القسم الذي سلم من هذا الشرح في 137صفحة. وقد وهم الدكتورسعيد بن الأحرش في أطروحته حين جعلها في (150) لوحة. ويستوعب هذا القسم شرح 169بيت، والباقي يقف فيه الشارح عند قول البوصيري :

يَـا نَفْـسُ لاتَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكَبَائِرَ فِي الغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

وبعد هذا البيت خمسةٌ ذهب شرحُها ضمن ما ضاع من كتاب ابن الأحمر، ويأتي بعد البيت السّابق قوله :

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ العِصْيَانِ فِي القَسَمِ

ونذكر هذا البيت لأن ضياع شرحه ذهب بمعلومات هامة ذكرها الشارح في ثنايا الشرح، ومن حسن الحظ أن شرح هذا البيت موجود عند تلميذه الجاديري، غير أنه ينقل عن أستاذه على سبيل التلخيص في الغالب، وليته نقل عنه هنا على الأقل نقلا حرفيا لأن ما جاء في الأصل في غاية الأهمية. ومن تلك النقول المفيدة، وإن كانت ناقصة بسبب الاختصار كما يبدو، ما يتعلق بما ينقله عن شيخه ابن الأحمر من الكلام الذي وقع بين يدي السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن المريني بالمدينة البيضاء من حضرة فاس، بمحضر عدد كبير من الفقهاء والعلماء والأساتذة والقضاة والشرفاء والخطباء وأصحاب العلوم، يذكر منهم الجاديري أسماء ثلاثين من جهابذتهم، منهم شيوخه، ومنهم أصحابه، ومنهم علماء العصر عامة، وقد عقب على ما ذكره بقوله : «وغير ذلك مما تركنا ذكره، ويطول به الكتاب ». ومدار الكلام في هذا المجلس السلطاني على ما تردد بينهم من نقاش محتدم، تعليقا منهم على شرح البيت المذكور، إلى أن قال مُجالسُ السلطان أبو زيان عريفُ أبي يحيى العربي السويدي : « إذا كانت الرحمة تأتي على حسب العصيان، إذن يخسر المحسنون ».

ولم يكن ابن الأحمر حاضراً في هذا المجلس بدليل ما يذكره تلميذه الجاديري معلقاً على ما سبق بقوله : « قال شيخنا : لو كنت حاضراً هناك لقلتُ مجاوباً له : أما أهل الطاعة فَفِرَارُهم من الذنوب، ونَبذُهم إياها بعداء التَّرك، وإِدبارُهم عن المعاصي وإِقبالُهم على الطاعة، هو الرحمة الكبرى، والطائعُ بإحسانه لا يُشابه العاصي بإساءته». إلى آخر النص الذي يبسط فيه الشارح رأيه مُؤَيداً وجهةَ نظره بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ينتهي إذن شرح ابن الأحمر عند شرح قول البوصيري :

يا نفسُ لا تقنَطي... البيت. ويقف عند تعداد الكبائر التي حددها في ثلاث وعشرين رواية عن ابن عباس، ومما يذكره منها :

الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل المؤمن، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، والسحر، والزنا، والسرقة، وأكل مال اليتيم.

ويتممها تلميذه الجاديري فيضيف إلى هذه العشر ما ذكره الأستاذ في أصله من باقي الكبائر، وهي : ترك الصلاة، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وقتل الولد خشية أن يأكل معه، والحسد، والكِبْر، والجنف في الوصية، وتحقير المسلمين، والغُلول، وشرب الخمر، وترك شيء مما افترضه الله عامدا، ونقض العهد، وقطيعة الرحم.

توجد النسخة الفريدة المعروفة من هذا الشرح في دار الكتب الناصرية بتمكروت، ولعل أول من أشار إلى وجودها هناك هو المرحوم محمد المنوني في فهرسته لتلك الخزانة، وكتب عنها مقالة نشرها في العدد الثامن من مجلة تطوان سنة 1963.

وعلى ضوء هذا المقال التعريفي بالمخطوط بدأت قلة قليلة جدا من الباحثين تتحدث عن هذه النسخة، ولكن معظمهم لم يستطع الوصول إليها، ولا الحصول على نسخة منها، وفي مقدمتهم الأستاذ الباحث عبد القادر زمامة الذي أنجز رسالته الجامعية عن أبي الوليد ابن الأحمر في غياب هذا المصدر الهام من مؤلفات ابن الأحمر، ولاسيما وهو قد ركز بحثه على آثاره ومؤلفاته، ولم تُجْدِه المجهوداتُ التي بذلها في سبيل ذلك، فلم يجد أمامه إلا تلخيص تلميذه الجاديري الذي أفاد منه في ملء بعض الفراغ.

أما خط هذه النسخة فهو أندلسي متوسط، أو أقرب إلى الجودة، تتيسر قراءتُه في الغالب، باستثناء بعض المواضع، وقد يكون السبب في تلك الصعوبات الموضعية راجعا إلى طريقة التصوير وظروفه، لأنني أعتمد على نسخة مصورة لا على الأصل.

وقد ألف ابن الأحمر هذا الشرح برسم أحد وزراء العصر، ذكره في مقدمة شرحه وأثنى عليه بما لا مزيد عليه، ورفع مكانته إلى أعلى الدرجات، وذلك على الرغم مما عُرف عن المؤلف من اعتداد كبير بنفسه وبنسبه ومكانته، ويبدو أن الظروف المعيشية

والنفسية التي ألف فيها هذا الشرح لم تكن مرضية، مما يوحي بأنه كان يتقرب إليه، أو يتوسل به من أجل تحقيق هدف ما.

وهذا الوزير كما يسميه المؤلف في مقدمة شرحه هو الوزير أبوبكر (أبو مجاهد) غازي أو ابن غازي ابن الكاس الورتجني، من وزراء العهد المريني المعاصر لابن الأحمر، وقد آل إليه القيام بأمر الدولة. عُرف بموقفه المناصر للسان الدين بن الخطيب في محنته الشهيرة، وعقب وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن المريني بتلمسان، تغلب الوزير المذكور على الأمر وبايع طفلا صغير السن من أبناءالسلطان عبد العزيز، وفي هذه الحادثة ألف ابن الخطيب كتابه (أعلام الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام)، ومراده بذلك تثبيت دولة هذا الوزير [1].

منهج الشرح وعناصره ومستوياته :

يقوم هذا الشرح من حيث منهجه العام على شرح بيت بعد آخر، ولكن مع تفاوت في نصيب كل بيت من الشرح والاستطراد المفيد الذي يضفي عليه طابع الشرح الأدبي العام، ويتجلى ذلك في كثرة عناصر الشرح وتعدد مستوياته ؛ مابين الشرح اللّغويّ وشرح المعنى، والتذوق البلاغي والفني، والأخبار التاريخية العامة، وجوانبَ من السيرة النبوية ومغازيه صلى الله عليه وسلم، وتفسير بعض الآيات القرآنية، والاستشهاد بالحديث النبوي، مع الإحالة في الغالب على مصادره المشرقية والمغربية والأندلسية، من كتب التفسير والمجاميع الأدبية وغير ذلك مما يضفي عليه طابع الطرافة، ويُغني مادته ويجعلها متنوعة.

ومن المؤكد أن العناصر والمستويات التي اهتمّ بها الشارح في شرحه لقصيدة البردة تعكس مجالات ثقافته المتنوعة، ومعارفه في مختلف الميادين، وقدرته على توظيفها في الموضع المناسب أيضا.

(1) نفح الطيب : 180/5.